ونعلم أن الإضافة تختلف حَسْب ما يقتضيه التعبير . فـ (سنة الأولين) تعنى الأمور الكونية التى قدَّرها الله لعباده . و (سنة الله) تعنى سُنَّة منسوبة لله ، ومن سُنَن الحق سبحانه أن يُهلك المُكذِّبين للرسل إنْ طلبوا آية فجاءتهم ، ثم واصلوا الكفر .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (1) ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ (2) أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

وهم قد طلبوا أن ينزل إليهم ملَكٌ من السماء ؛ لذلك نجد الحق سبحانه هنا يأتيهم بدليل أقوى ممَّا طلبوا ، ذلك أن نزول ملَك من السماء هو أسهل بكثير من أن يُنزلَ من السماء سُلَّماً يصعدون عليه ، وفى هذا ارتقاء فى الدليل ؛ لكنهم يرتقون أيضاً فى الكفر ، وقالوا : إن حدث ذلك فلَسوفَ يكون من فعل السحر .

ولو كان محمد ﷺ ساحراً لَسحرهم ، وجعلهم جميعاً مؤمنين ، وعلى الرغم من أن مثْل هذا الأمر كان يجب أن يكون بدهياً بالنسبة لهم ، لكنهم يتمادوْنَ فى الكفر ، ويقولون : إنه لو نزَّل سُلَّماً من السماء وصعدوا عليه ؛ لَكانَ ذلك بفعل السحر ؛ ولكانَ رسول الله هو الذى سحرهم ؛ وأعمى أبصارهم ، ولَجعلهم يتوهمون ذلك .

---

(١) عرج يعرج : صعد وعلا وارتفع . [القاموس القويم ٢/١٣] . والمعارج : المصاعد والدرَج . والمعراج : السُّلَّم . [لسان العرب ـ مادة : عرج] .

(٢) سُكِّرت أبصارنا . أى : حبست عن النظر وحُيِّرت . وقال أبو عمرو بن العلاء : معناها غُطيت وغُشّيت . أى : سُدَّت بالسحر فيتخايل بأبصارنا غير ما نرى . [لسان العرب ـ مادة : سكر] .

وكأن معنى هذا القول الكريم : لو ارتقينا فى مطلبهم ، وأنزلنا لهم سُلَّماً يصعدون به إلى أعلى ؛ ليقولوا : إن الحق هو الذى بعث محمداً بالرسالة ، بدلاً من أن ينزل إليهم ملك حسب مطلبهم ؛ لَمَا آمنوا بل لقالوا : إن هذا من فعل سحر قام به محمد ضدهم . وهكذا يرتقون فى العناد والجحود .

ولا بُدَّ أن نلحظ أن الحق سبحانه قد جاء هنا بكلمة :

﴿ فَظَلُّوا (١٤) ﴾ [الحجر]

ولم يقل « وكانوا » ، ذلك أن « كان » تُستخدم لمُطْلق الزمن ، و « ظل » للعمل نهاراً ، و « أمسى » للعمل ليلاً ، أى : أن كل كلمة لها وَقْت مكتوب ، والمقصود من « ظَلُّوا » هنا أن الحق سبحانه لن ينزل لهم السُّلَّم الذى يعرجُون عليه إلا فى منتصف النهار ، ولكنهم أصرُّوا على الكفر .

لذلك قال سبحانه :

﴿ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) ﴾ [الحجر]

أى : لن نأخذهم بالليل ، حتى لا يقولوا إن الدنيا كانت مظلمة ولم نر شيئاً ، ولكنه سيكون فى وضح النهار . أى : أن الله حتى لو فتح باباً فى السماء يصعدون منه إلى الملأ الأعلى فى وضح النهار لكذَّبوا .

وبعد ذلك ينقلنا الحق سبحانه إلى الكون ليُرِينَا عجيبَ آياته ، فيقول :

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) ﴾

والبروج تعنى المبانى العالية ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ[1] (٧٨) ﴾ [النساء]

وهو سبحانه القائل : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) ﴾ [البروج]

والمعنى الجامع لكل هـذا هو الزينة المُلْفِتة بجرْمهـا العالى ؛ وقد تكون مُلْفِتة بجمالها الأخَّاذ .

والبـروج هى جـمع بُرْج ؛ وهى منازل الشـمس والقمـر ؛ فكلمـا تحركت الشمس فى السـماء تنتقل من برج إلى آخر ؛ وكـذلك القمر ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) ﴾ [الأنبياء]

وهو سبحانه القائل :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ (٥) ﴾ [يونس]

أى : لنضـبط كل التـوقـيتـات على ضَـوْء تلك الحـركـة لكل من الشمس والقمـر ، ونحن حين نفتح أىَّ جريدة نقـرأ ما يُسمَّى بأبواب الطالع ، وفـيـه أسمـاء الأبراج : برج الحَـمَل ، وبرج الجـدى ، وبرج العذراء ؛ وغـيرها ، وهى أسـماء سـريانية للمنازل التى تنزلـها أبراج النجوم . ويقول الشاعر :

(١) شيد البناء : رفعه وأحكمه وطلاه . [القاموس القويم : ١/٣٦٣] .

حَملَ الثورُ جَوْزَة السرطَان ورعَى الليْثُ[1] سُـنبل المـيزَان
عقربَ القوس جَـدى دَلْـو وحُوت ما عرفنَا من أُمةِ السِّريَانِ

وهم اثنا عـشر برجـاً ، ولكل برج مـقاييس فى الجـو والطقس . وحين نقرأ القرآن نجد قول الحق سبحانه :

﴿ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) ﴾ [النحل]

والبـعض يحـاول أن يجـد تأثيـراً لكل برج على المـواليـد الذين يُولدون أثناء ظهـور هذا البرج ، ولعـل مَنْ يقول ذلك يصل إلى فَـهْم لبعض من أسـرار الله فى كونه ؛ ذلك أنه سبـحانه قد أقـسم بمواقع النجوم ، وقال :

﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) ﴾ [الواقعة]

وهناك مَنْ يقول : إن لكل إنسـان نجماً يُولَد معه ويمـوت معه ؛ لذلك يُقَال « هوى نجم فلان » ، ونحن لا نجزم بصِحة أو عدم صحّة مـثل هذه الأمـور ؛ لأنه لـم تثبُت علميـاً ، والحق سـبحـانه أعلم بأسراره ، وقد يُعلمها لبعضٍ من خَلْقه .

وهنا فى الآية التى نحن بـصدد خـواطرنا عنهـا نجد قـول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا .. (١٦) ﴾ [الحجر]

أى : أن هناك تأكيداً لوجود تلك الـبروج فى السماء ، وليس هذا

(١) الليث : الأسد ، والجمع ليـوث . وهو مأخوذ من المعنى اللغوى ، فـالليث : الشدة والقوة . [لسان العرب ـ مادة : ليث] .

الجَعْل لتأثيرها فى الجو ، أو لأنها علامات نهتدى بها ، فضلاً عن تأثيرها على الحرارة والرطوبة والنباتات ، ولكنها فوق كل ذلك تؤدى مُهمة جمالية كبيرة ، وهى أن تكون زينة لكل مَنْ ينظر إليها .

لذلك قال الحق سبحانه :

﴿وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ⦗١٦⦘﴾ [الحجر]

ذلك أن الشىء قد يكون نافعاً ؛ لكن ليس له قيمة جمالية ؛ وشاء الحق سبحانه أن يجعل للنجوم قيمة جمالية ، ذلك أنه قد خلق الإنسان ، ويعلم أن لنفسه ملَكاتٍ مُتعددة ، وكُلّ ملَكةٍ لها غذاء .

فغذاءُ العين المنظر الجميل ؛ والأذن غذاؤها الصوت الجميل ، والأنف غذاؤه الرائحة الطيبة ؛ واللسان يعجبه المذاق الطيب ، واليد يعجبها الملْمَس الناعم ؛ وهذا ما نعرفه من غذاء الملَكات للحواس الخمس التى نعرفها .

وهناك ملَكات أخرى فى النفس الإنسانية ؛ تحتاج كل منها إلى غذاء معين ، وقد يُسبِّب أخْذ ملَكة من ملَكات النفس لأكثر المطلوب لها من غذاء أن تَفْسد تلك الملَكة ؛ وكذلك قد يُسبِّب الحرمان لملَكة ما فساداً تكوينياً فى النفس البشرية .

والإنسان المتوازن هو مَنْ يُغذّى ملَكاته بشكل مُتوازن ، ويظهر المرض النفسى فى بعض الأحيان نتيجةً لنقص غذاء ملَكة ما من الملَكات النفسية ، ويتطلب علاجُ هذا المرض رحلةً من البحث عن الملَكة الجائعة فى النفس البشرية .

وهكذا نجد فى النفس الإنسانية ملَكة لرؤية الزينة ، وكيف

تستميل الزينة النفس البشرية ؟ ونجد المثل الواضح على ذلك هو وجود مهندسى ديكور يقومون بتوزيع الإضاءة فى البيوت بأشكال فنية مختلفة .

ولذلك يقول الحق سبحانه عن أبراج النجوم :

﴿ وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) ﴾ [الحجر]

ونجده سبحانه يقول عن بعض نِعَمه التى أنعم بها علينا :

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً .. (٨) ﴾ [النحل]

وهكذا يمتنُّ علينا الحق سبحانه بجمال ما خلق وسخَّره لنا ، ولا يتوقف الأمر عند ذلك ، بل هى فى خدمة الإنسان فى أمور أخرى :

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ[1] إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧) ﴾ [النحل]

وهو سبحانه وتعالى الذى جعل تلك الدواب لها منظر جميل ؛ فهو سبحانه القائل :

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ[2] (٦) ﴾ [النحل]

وهو سبحانه لم يخلق النعم لنستخدمها فقط فى أغراضها المُتَاحة ؛ ولكن بعضاً منها يروى أحاسيس الجمال التى خلقها فينا سبحانه . وكلما تأثرنا بالجمال وجدنا الجميل ، وفى توحيده تفريد لجلاله .

---

(١) الأثقال : الأحمال الثقيلة . والثقل : الحمل الثقيل . [القاموس القويم ١/١٠٨] .

(٢) سرحت الماشية . أى : أخرجتها بالغداة إلى المرعى . [لسان العرب ـ مادة : سرح] .

ويقول سبحانه عن السماء والبروج :

﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (١٧) ﴾

ونعلم أن الشياطين كانوا يسترقون[1] السمع لبعض من منهج الله الذى نزل على الرسل السابقين لرسول الله ﷺ ؛ وكانوا يحاولون أن يُضيفوا لها من عندهم ما يُفسد معناها ، وما أنْ جاء رسول الله ﷺ حتى منع كل هذا بأمر من الحق سبحانه ، يقول جل عُلاَه :

﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ .. (١٢١) ﴾ [الأنعام]

ولذلك نجد الشياطين تقول ما ذكره الحق سبحانه على ألسنتهم فى كتابه العزيز :

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا[2] رَّصَدًا (٩) وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠) ﴾ [الجن]

وهكذا علمنا أنهم كانوا يسترقون السمع ؛ ويأخذون بِضْعاً من كلمات المنهج ويزيدون عليها ؛ فتبدو بها حقيقة واحدة وألف

---

(١) استرق السمع : إذا سمعه مستخفياً كأنه يسرق الكلام المسموع كما يسرق المال ، وقوله : ﴿ إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ .. (١٨) ﴾ [الحجر] أى : استمع فى خُفية . [القاموس القويم ١/٣١٢] .

(٢) الشهاب : الشعلة الساطعة من النار . وهو النجم المضىء اللامع . وهو جِرْم سماوى يسبح فى الفضاء ، فإذا دخل فى جو الأرض اشتعل ، وصار رماداً . [المعجم الوجيز : مادة : شهب] .

كـذبة[1] . وشاء الحق سبحانه أن يُكذِّب ذلك ؛ فقال :

﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ[2] (١٧) ﴾ [الحجر]

والشيطان كما نعلم هو عاصى الجن .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ (١٨) ﴾

وكلمة : ﴿ اسْتَرَقَ (١٨) ﴾ [الحجر]

تُحدِّد المعنى بدقّة ، فهناك مَنْ سرق ؛ وهناك مَنْ استرق ؛ فالذى سرق هو مَنْ دخل بيتاً على سبيل المثال ، وأخذ يُعبّىء ما فيه فى حقائب ، ونزل من المنزل على راحته لينقلها حيث يريد .

لكن إنْ كان هناك أحد فى المنزل ؛ فاللص يتحرك فى استخفاء ؛ خوفاً من أن يضبطه مَنْ يوجد فى المنزل ليحفظه ؛ وهكذا يكون معنى « استرقَ » الحصول على السرقة مقرونة بالخوف .

وقد كان العاصون من الجنِّ قبل رسول الله ﷺ يسترقون السمع

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٥٧٦٢) ، وأحمد فى مسنده (٦/٨٧) ، ومسلم فى صحيحه (٢٢٢٨) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : « سأل ناس النبى ﷺ عن الكهان ، فقال : إنهم ليسوا بشيء . فقالوا : يا رسول الله إنهم يحدثون بالشيء يكون حقاً . فقال ﷺ : تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى فيقرقرها فى أذن وليه كقرقرة الدجاجة فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة » .

(٢) الرجم : الرمى بالحجارة . والرجم : اللعن والإبعاد والطرد . ويكون الرجيم بمعنى المشتوم المسبوب من قوله تعالى : ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ .. (٤٦) ﴾ [مريم] أى : لأسبنك . [لسان العرب - مادة : رجم] .

للمنهج المُنزّل على الرُّسُل السابقين لرسول الله ﷺ ؛ واختلف الأمر بعد رسالته الكريمة ؛ حيث شاء الحق سبحانه أنْ يحرسَ السماء ؛ وما أنْ يقترب منها شيطان حتى يتبعه شهاب ثاقب[1] .

والشهاب هو النار المرتفعة ؛ وهو عبارة عن جَذْوة تشبه قطعة الفحم المشتعلة ؛ ويخرج منه اللهب . وهو ما يُسمَّى بالشهاب .

أما إذا كان اللهب بلا ذؤابة[2] من دخان ؛ فهذا اسمه « السَّمُوم ». وإنْ كان الدخان مُلْتوياً ، ويخرج منه اللهب ، ويموج فى الجو فيُسمى « مارج » حيث قال الحق سبحانه :

﴿ مَارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [الرحمن]

وهكذا نجد السماء محروسة بالشهب والسَّمُوم ومارج من نار .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ ﴾

وحين نسمع كلمة الأرض فنحن نتعرف على المقصود منها ، ذلك أنه ليس مع العين أيْن . والمدُّ هو الامتداد الطبيعى لِمَا نسير عليه من أىِّ مكان فى الأرض .

وهذه هى اللفتة التى يلفتنا لها الحق سبحانه ؛ فلو كانت الأرض

---

(١) شهاب ثاقب : أى : مشتعل مضيء خارق لظلام الليل ، أو خارق ماحق لكل شيطان يخطف خطفة من السماء ، وسبب اشتعال الشهاب هو دخوله فى نطاق جاذبية الأرض واحتكاكه بالهواء . [القاموس القويم ١٠٧/١] .

(٢) ذؤابة كل شيء : أعلاه . ذؤابة الفرس : شعر فى الرأس ، فى أعلى الناصية . وذؤابة القوم : أشرافهم وأعلاهم . [لسان العرب - مادة : ذأب] .

مُربعة ؛ أو مستطيلة ؛ أو مُثلثة ؛ لوجدنا لها نهاية وحَافَّة ، لكنَّا حين نسير فى الأرض نجدها مُمْتدة ، ولذلك فهى لا بُد وأن تكون مُدوَّرة .

وهم يستدلون فى العلم التجريبى على أن الأرض كُروية بأن الإنسان إذا ما سار فى خط مستقيم ؛ فلسوف يعود إلى النقطة التى بدأ منها ، ذلك أن مُنْحنى الأرض مصنوعٌ بدقة شديدة قد لا تدرك العين مقدارَ الانحناء فيه ويبدو مستقيماً .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [الحجر]

يعنى أشياء تثبتها . ولقائل أنْ يتساءل : ما دامت الأرض مخلوقةً على هيئة الثبات فهل كانت تحتاج إلى مثبتات ؟

ونقول : لا بد أن الحق سبحانه قد خلقها مُتحركة وعُرْضة لأنْ تضطربَ ؛ فخلق لها المُثقِّلات ، وهكذا نكون قد أخذنا من هذه الآية حقيقتين ؛ التكوير والدوران .

وهناك آية أخرى يقول فيها الحق سبحانه :

﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴿٨٨﴾ ﴾ [النمل]

ونفهم من هذا القول الكريم أن حركة الجبال ليست ذاتيةً بل تابعة لحركة الأرض ؛ كما يتحرك السحاب تبعاً لحركة الرياح .

وشاء سبحانه أن يجعل الجبال رواسى مُثبِّتات للأرض كى لا تميدَ بنا ؛ فلا تميل يَمْنة أو يَسْرة أثناء حركتها .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنْبَتْنَا(١) فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ۝١٩ ﴾ [الحجر]

وأنبت سبحانه من الأرض كُلَّ شيء موزون بدقّة تناسب الجو والبيئة ، ويضم العناصر اللازمة لاستمرار الحياة .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ(٢) وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ۝٢٠ ﴾

فى هذا القول يمتنُّ علينا سبحانه بأنه جعل لنا فى الأرض وسائل للعيش ؛ ولم يكتَفِ بذلك ، بل جعل فيها رزقَ ما نطعمه نحن من الكائنات التى تخدمنا ؛ من نبات وحيوان ، ووقود ، وما يلهمنا إياه لنطور حياتنا من أساليب الزراعة والصناعة ؛ وفوق ذلك أعطانا الذرية التى تَقَرُّ بها العين ، وكل ذلك خاضع لمشيئته وتصرُّفه .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢١ ﴾

وقوله الحق :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ .. ۝٢١ ﴾ [الحجر]

أى : أنه لا يوجد جنس من الأجناس إلا وله خزائنُ عند الله

---

(١) المقصود من الإنبات: الإنشاء والإيجاد . قاله القرطبى فى تفسيره (٥/٣٧٣٦) . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ﴾ [نوح] .

(٢) المعايش : جمع معيشة ، وهو ما يقتات به ويعيش عليه الإنسان .

سبحانه ، فالشيء الذى قد تعتبره تافهاً له خزائن ؛ وكذلك الشيء النفيس ، وهو سبحانه يُنزِل كل شيء بقدَرٍ ؛ حتى الاكتشافات العلمية يُنزِلها بقدَرٍ .

وحين نحتاج إلى أيِّ شيء مخزون فى أسرار الكون ؛ فنحن نُعمل عقولنا الممنوحة لنا من الله لنكتشف هذا الشيء . والمثل هو الوقود . وكُنا قديماً نستخدم خشب الأشجار والحطب .

وسبحانه هو القائل :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ[1] (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) ﴾ [الواقعة]

واتسعت احتياجات البشر فاكتشفوا الفحم الذى كان أصله نباتاً مطموراً أو حيواناً مطموراً فى الأرض ؛ ثم اكتُشف البترول ، وهكذا .

أى : أنه سبحانه لن يُنشيء فيها جديداً ، بل أعدَّ سبحانه كل شيء فى الأرض ، وقدَّر فيها الأقوات من قبل أنْ ينزِل آدم عليه السلام إلى الأرض من جنة التدريب ليعمُرَ الأرض ، ويكون خليفة لله فيها ، هو وذريته كلها إلى أن تقومَ الساعة .

فإذا شكوْنَا من شيء فهذا مَرْجعه إلى التكاسل وعدم حُسْن استثمار ما خلقه الله لنا وقدَّره من أرزاقنا فى الأرض . ونرى التعاسة فى كوكب الأرض رغم التقدُّم العلمى والتِّقنى ؛ ذلك أننا نستخدم ما كنزه الحق سبحانه ليكون مجال سعادة لنا فى الحروب والتنافر .

---

(١) أورى : أخرج النار من الشيء . ورى الزند : خرجت ناره ، وأوراه غيره إذا استخرج ناره . والزند الوارى : الذى تظهر ناره سريعاً . [لسان العرب ـ مادة : ورى] .

ولو أن ما يُصرف على الحروب ؛ تم توجيهه إلى تنمية المجتمعات المختلفة لَعاشَ الجميع فى وفرة حقيقية . ولكن سوء التنظيم وسوء التوزيع الذى نقوم به نحن البشر هو المُسبِّب الأول لتعاسة الإنسان فى الأرض ؛ ذلك أنه سبحانه قد جعل الأرض كلها للأنام ، فمن يجد ضِيقاً فى موقع ما من الأرض فليتجه إلى موقع آخر .

ولكن العوامل السياسية وغير ذلك من الخلافات بين الناس تجعل فى أماكن فى الأرض ؛ رجالاً بلا عمل ؛ وتجعل فى أماكن أخرى ثروة بلا استثمار ؛ ونتجاهل قوله سبحانه :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ.. (٢١) ﴾ [الحجر]

فلكل شىء فى الأرض خزائن ؛ والخزينة هى المكان الذى تُدَّخر فيه الأشياء النفيسة ، والكون كله مخلوق على هيئة أن الحق سبحانه قدَّر فى الأرض أقْواتاً لكل الكائنات من لَدُن آدم إلى أن تقومَ الساعة .

فإنْ حدث تضييق فى الرزق فاعلموا أن حقاً من حقوق الله قد ضُيِّع ، إما لأنكم أهملتم استصلاحَ الأرض وإحياء مواتها[1] بقدر ما يزيد تعداد السكان فى الأرض ، وإما أنكم قد كنزتُم ما أخذتُم من الأرض ، وضننتُم بِمَا اكتنزتموه على سواكم .

فإنْ رأيتَ فقيراً مُضيَّعاً فاعلم أن هناك غنياً قد ضَنَّ عليه بما

(١) إحياء الموات هو إعداد الأرض الميتة التى لم يسبق تعميرها وتهيئتها وجعلها صالحة للانتفاع بها فى السكنى والزرع ونحوها . ويشترط لاعتبار الأرض مواتاً أن تكون بعيدة عن العمران ، ويسقط حق محتجر الأرض للإحياء فيها إذا مرت ثلاث سنوات دون إعمارها . [فقه السنة ٣/٢٠١] بتصرف .

أفـاض الله على الغنى من رزق ، وإنْ رأيت عاجـزاً عن إدراك أسبـاب حيـاته فاعلم أن واحداً آخـر قد ضَنَّ عليه بقُـوته . وإنْ رأيت جاهلاً ؛ فـاعلم أن عالمـاً قـد ضَنَّ عليه بـعلمه . وإنْ رأيت أخْـرق[١] فاعلم أن حكيمـاً قد ضَنَّ عليه بحكمتـه ؛ فكُلّ شىء مخزون فى الحيـاة ؛ حتى تسلم حـركة الحيـاة ؛ سلامـةٌ تؤدى إلى التسـانُد والتعـاضُد ؛ لا إلى التعانُد والتضارب .

ونعلم أنه سبحـانه قد أعدَّ لنا الكون بكُل ما فـيه قبل أنْ يخلقنا ؛ ولم يُكلِّفنا قـبل البلوغ ؛ ذلك أنه علِم أزلاً أن التكـليف يُحدِّد اخـتيـار الإنسـان لكثـيـر من الأشيـاء التى تـتعلق بـكل ملكات النفس ؛ قُـوتاً ومَشْرباً وملْبساً ومسكناً وضَبْطاً للأهواء ، كـى لا ننساقَ فى إرضاء الغرائز على حساب القيمَ .

وشـاء سبـحانه ألاَّ يكون التكليـف إلا بعد البلوغ ؛ حـتى تستـوفى ملكاتُ النفس القوةَ والاقتدارَ ، ويكون قادراً على إنجاب مثيل له ، ولكى يكون هذا التكليف حُجَّـة على الإنسان ، هذا الذى طَمَر له الحق سـبحانه كل شىء إمَّا فى الأرض ؛ أو كان طمراً فى النوع ، أو فى الجنس .

وكُلُّ شىء فى الكون موزون ، إما أن يكون جِنْساً ، أو نَوْعاً ، أو أفراداً ؛ والميزان الذى توجـد به كل تلك العطاءات ؛ إنما شاء به الحق سبـحانه أن يهبَ الرب للكل ؛ وليـوافق الكثرة ؛ وليعـيش الإنسان فى حـضْن الإيمـان . وهكـذا يكون عطاء الله لنـا عطاءَ ربوبيـة ، وعطاءَ ألوهية ، والذكىّ حقاً هو مَنْ يأخذ العطاءين معاً لتستقيم حياته .

---

(١) الأخرق : الأحمق الجاهل الذى لا يُحسن عمله . [لسان العرب ـ مادة : خرق] .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا[1] (١٠٠) ﴾ [الإسراء]

وذلك ليوضح لنا الحق سبحانه أن الإنسان يظنُّ أن ذاتيته هى الأصل ، وأن نفعيته هى الأصل ، وحتى فى قضايا الدين ؛ قد يتبع العبد قوله الحق :

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ[2] (٩) ﴾ [الحشر]

ومَنْ يفعل ذلك إنما يفعله فى ظاهر الأمر أنه يُؤْثِر الغيرَ على نفسه ؛ ولكن الواقع الحقيقى أنه يطمع فيما أعدَّه الله له من حُسْن جزاء فى الدنيا وفى الآخرة .

إذن : فأصْل العملية الدينية أيضاً هو الذات ؛ ولذلك نجد مَنْ يقول : أنا أُحب الإيمان ؛ لأن فيه الخيرية ، يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) ﴾ [العاديات]

وفيه أنانية ذكية تتيح لصاحبها أخْذ الثواب على كل عمل يقوم به لغيره ، وهذا لون من الأنانية الذكية النافعة ؛ لأنها أنانية باقية ، ولها عائد إيمانى .

---

(١) قتر الرجل على عياله : ضيق عليهم فى النفقة . والقتر : ضيق العيش . والإقتار : التضييق على الإنسان فى الرزق . [لسان العرب - مادة : قتر] .

(٢) خصّ يخص خصاصة : افتقر واحتاج . والخصاصة : الفقر والاحتياج . [القاموس القويم ١٩٥/١] .